الحكومة العربية وسياستها

في عصر الجمهورية اي عصر الخلفاء الراشدين

حكومة كل شعب هي المرآة التي تنطبع عليها صورتهُ وتشاهد فيها صفاتهُ ومميزاتهُ وهي السجل الذي يدوّن فيهِ ما لهذا الشعب من مفاخر ومآثر ، اذ ما من تغير او انقلاب ينتابها الاَّ ويكون الحاضّ عليهِ والداعي لهُ حالة ذلك الشعب النفسية او المادية او كلاهما معاً ، فهي تنقلص وتمتد وتسمو وتحط بنسبة رقيّه وانحطاطهِ فكأنها هي الترمومتر الحساس الذي يدوّن الدرجات التي يرقى اليها في سلم المدنية والعمران . فاذا نحن تكلمنا على الحكومة العربية في عصر الجمهورية نكون قد جلونا للقارئ صورة عصر هو احفل عصور الامة العربية وازخرهُ بجلائل الاعمال . ونبدأ الآن في شرح صفات هذه الحكومة ومميزاتها

﴿الحكم الجمهوري﴾ : ليس اتفاق الاشياء في الاسماء بدليل على وحدة اصلها وليس الاختلاف فيها دائماً بدليل على كونها ليست متماثلة الاصول ، والامثلة على ذلك لا تنتهي تحت عدّ او حصر ، فاية ناحية من نواحي الحياة سبرت غورها لا تعدم فيها مثالاً او امثلة لما أسلفنا . ففي اميركا الجنوبية عدة دويلات يطلق على كل منها اسم جمهورية ولكن عند ما تطلع على نوع الحكم فيها لا تتردد في البت في انها لا تستحق من هذا الاسم الاَّ ضدهُ . وهناك عدة جزر رابضة على صدر بحر الظلمات قبلاً وبحر النور اليوم (الجزر البريطانية) يقال ان الحكم فيها هو من النوع الملكي ، اجل هو من النوع الملكي الذي يكون فيهِ الملك مقيداً بالف قيد وقيد فلا يسعهُ الاَّ النزول على ارادة الشعب ورغائبهِ . فليس هناك فرد يقرّر مصير امة بل امة تقرّر مصير نفسها بنفسها . فاذا ما نحن تدبرنا ما تقدم وتدبّرنا نوع الحكم في تلك الفترة التي اشغلها ، بعد موت النبيّ محمد ، الخلفاء الراشدون لا نجد ما يمنعنا من تسميتهِ بالحكم الجمهوري

وكما انهُ لكل عصر من عصور التاريخ فرد يمثل فيهِ ذلك العصر ، فان لعصر الخلفاء الراشدون ممثلاً هو الخليفة عمر بن الخطاب ، فنجد مميزات هذا العصر ظاهرة في مدة حكمهِ كل الظهور . تولى هذا الخليفة شؤون المسلمين بعد ان قضى ابو بكر نحبهُ فكانت قاعدتهُ التي سار عليها والتي اهتدى بنورها في كل حكمهِ ما فاة بهِ في احد

موافقة الخطابية لما قام يستشير القوم فيمن يوليه امر جيوش العراق حيث قال « ان الله عزّ وجلّ قد جمع على الاسلام اهلهُ فألّف بين القلوب وجعلهم فيهِ اخواناً ، والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منهُ شيءٌ من شيء اصاب غيرهُ وكذلك يحق للمسلمين ان يكون امرهم شورى بينهم ومن قام بهذا الامر فهو تبع لأولي رأيهم ما رأوا لهم ورضوا بهِ لهم »

لعمري انها لديمقراطية حقة من عمر اذ يجعل نفسهُ تبعاً لأولي رأيهم

ولشأنٍ يخبر الشورى فهي تظهر ناحية اخرى من تلك السياسة التي كان يسير عليها عمر ، وذلك انهُ لما حضرتهُ الوفاة وايقن انهُ هالك لا محالة ، استدعى كبار الصحابة واستشارهم في امر الخلافة فاشار عليهِ البعض بتولية الامر لابنه عبدالله فثار في وجوههم ثورة الليث ووبخهم على ذلك توبيخاً شديداً وزاد ان اوصى بان لا يكون ابنهُ ضمن المرشحين للخلافة

سياسة عُمَر

﴿ سياستهُ الداخلية ﴾ : لم تكن سياسة عمر الداخلية متقلبة او يشوبها الغموض بل كانت على الضد من ذلك واضحة وضوح الشمس ثابتة ثبوت الجبال . وهي تلخص في انها سياسة غايتها ابقاء الامة العربية بعيدة عن المؤثرات والمغريات الخارجية ، وتوحيدها تحت راية الاسلام . وقد سلك عمر ليبلوغ هذه الغاية عدة مسالك منها : —

انهُ لم يكن يسمح للجند العربي باستعمار الارض المفتتحة قاصداً من ذلك الاّ يركن العرب الى الترف والخمول بل ان يكونوا دائماً على اهبة الاستعداد للذب عن حياض الاسلام . ثم هو كان يقصد الاّ يدع سبيلاً لاختلاط الشعوب العربية بغيرها من الموالي خوفاً من ان يؤدي ذلك الاختلاط الى المزاوجة مما يدعو الى ضياع الانساب العربية وهو ما كان يخشاهُ كل الخشية و يتجنبهُ بكل وسيلة

وانهُ منع من الوظائف من كانت صحيفة سابقهم بيضاء خشية ان تلهيهم امور هذه الدنيا و يجرفهم معها تيارها فيحيدون عن الطريق القويم ولا يعودون يقيمون للحق وزناً

وقد تذرع ليبلوغ الغاية الثانية وهي توحيد الامة العربية بعدة ذرائع منها : انهُ كان يشجع المجتمعات العامة حتى يتعارف القوم وتزول من بينهم الفوارق التي اوجدتها ارستقراطية الجاهلية — تلك الارستقراطية التي اجهد عمر نفسهُ ، ولاقى ما لاقى في سبيل القضاء عليها . وماحادثة جبلة بن الأيهم الاّ بعض ما فعلهُ في هذا الشأن

ولقد جهد عمر في توحيد الديانة في الجزيرة العربية ، ومن اجل هذا كان اجلى النجرانيين عن بلادهم ليس لشيء آخر ، ولقد يبدو عمر لبعض الناس ، من هذا العمل ، بمظهر غير المظهر الذي تعوّدوا ان يروه فيه . ولكن من يتدبر الامر لا يسعهُ الاّ متابعة عمر على هذه السياسة . ذلك لان البلاد العربية كانت لا تزال حديثة العهد في الاسلام فكان من التغرير اذاً ان يترك هؤلاء واضرابهم في الجزيرة العربية يفتنون القوم عن دينهم و يدسون في معتقداتهم ما شاءوا وشاءت لهم اهواؤهم

﴿ سياستهُ الخارجية ﴾ : كانت سياسة عمر الخارجية سياسة استعمارية محضة ، فكان يبقي الارض المفتوحة في ايدي اصحابها لعلمهِ انهُ ان انتزعها منهم تكون النتيجة وبالاً على الجمهورية العربية اذ ينقطع عنها معين الرزق الذي هو مادة الملك وقوامهُ

وقد سار في ناحية اخرى من سياستهِ الخارجية على اسلوب هو نفس الاسلوب الذي تسير عليهِ الامم الاستعمارية الراقية اليوم . وذلك انهُ لم يصادم تلك الاقوام ، التي خضعت لسلطان الاسلام ، في عاداتها وتقاليدها ولم يجُر عليها من الانظمة ما ليس يتفق وطبيعة افرادها . ومما يجدر ذكرهُ مع شيء من التجوز انهُ كان يعطي المحكومين شيئاً من الحكم الذاتي وخصوصاً اولئك الذين لم يكونوا خاضعين لحكم اجنبي بل بالعكس كان لهم ملك اثيل ومدنية راقية مما جعلهم يتعزون بعض التعزية عن مجدهم الغابر وملكهم المضاع . فكان هذا العمل غاية في الدلالة على ما في نظر عمر من بعد المرمى و يكفيهِ فخراً ودلالة على انهُ خلق للملك وان الملك خلق لهُ ان سوريا اصبحت في السنين القليلة التي تولى الخلافة فيها عربية حتى اصبحت لغة قريش واصبح دين قريش لغتها ودينها ، وحتى اصبحت العادات والتقاليد العربية منتشرة في جميع اقسامها وشائعة في جسمها شيوع الدم في الجسم . نعم لا ننكر ان مجاورة سوريا للجزيرة العربية واتصالها بها عن طريق التجارة وكون بعض اقسامها كان مأهولاً بقبائل عربية سهّل بعض التسهيل تعريبها . ولكن مما لا ريب فيهِ ان سياسة عمر الرشيدة هي التي كان لها اوفر حظ في تلك النتيجة . هذه هي سياسة عمر الخارجية . ويمكن تلخيصها بكلمتين ، انها كانت سياسة استعمارية مبنية على دعامتين هما العدل واللامركزية

***

يقال ان ما كان قريب المنال يكون وشيك الزوال ، وما اتى سريعاً يذهب سريعاً وهذا يصدق الى مدًى بعيد . وان تواريخ الامم مفعمة بالشواهد على ذلك . خذ تاريخ

اية امة وابحثهُ بحثاً مدققاً ترَ ان الحوادث الاكثر ثبوتاً هي تلك التي اشتغلت في تكوينها السنون الطويلة ، والتي كانت نتيجة تفاعل عوامل مختلفة تعاونت على ابرازها الى حيز الوجود . وعلى العكس ترى ان الحوادث التي لم تهيئ لها القرون العديدة سريعة الزوال وشبيهة الاضمحلال فتراها تمرُّ من امامك مر السحاب ، او كما يقول كتَّاب العصر مرَّ الصور المتحركة . وهذا كان شأن الجمهورية العربية فانها لفظت النفس الاخير بموت رابع الخلفاء الراشدين . فكان ذلك آخر عهد للامة العربية بالحكم الجمهوري . واصبح الحكم منذ ذلك الوقت حكماً ملكياً استبدادياً . والآن نختم هذا البحث بذكر بعض الاسباب التي نظن انها عجلت زوال الجمهورية العربية — نذكرها ذكراً مجملاً

ان العصبية العربية التي اراد عمر ان يستأصل شأفتها لم تترَّ فأسهُ على جذورها . فلما اتاح لها الوقت الناس يتعهدونها بالسقي واسباب النماء ، ليستغلوها لانفسهم ، نمت بشكل اشد واروع مما كانت عليهِ في زمن الجاهلية . واول من نفخ في ذلك البوق وضرب على تلك النغمة كان معاوية ابن ابي سفيان فانهُ ادرك ان تلك القلوب التي الفها الاسلام ما زالت ملأى باحقاد الجاهلية فاقام طائفة على اخرى حتى تم لهُ ما اراد فكان شأن الامة العربية مع معاوية شأن ذينك الوطنين اللذين ما زالا يقتتلان حتى سالت دماؤهما

ثم نذكر من تلك الاسباب ان الخليفة كان في غالب الاحيان لا يحتل الاَّ جانباً واحداً من الامة العربية ، هذا فضلاً عن ان الموالي كانوا بالرغم عما لاقوهُ من عدل الخلفاء حاقدين على العرب محتفظة قلوبهم عليهم عموماً وعلى قريش خصوصاً فعملوا على الكيد لهم فانتشرت جمعياتهم السياسية تبثُّ بذور الانشقاق بينهم وتعمل في الخفاء والعلانية على فصم عرى الاتحاد في صفوفهم فكان ذلك لهم

وهناك سبب آخر كان من اوكد الاسباب التي ادت الى تلك النتيجة وهو اصطباغ الخلافة منذ نشأتها بالصبغة الدينية فكان الخليفة الحاكم على الارواح والابدان مما سهل عليهِ في العصور التي تلت عصر الخلفاء الراشدين ان ينفذ مآربهُ كلها او جلها بالنسبة لحالة الشعب . ثم ان هذا الامر اوجد مضطرباً واسعاً للقلاقل والفتن وظهور المشاغبات اذ اخذ كل طامح الى الملك طامع فيهِ يتخذهُ مطية لقضاء مآربهِ . وهناك اسباب غير ما ذكرنا ضربنا عن ذكرها وهي لا تخفى على الناقد البصير

دار المعلمين — القدس أديب عوده